**من أوراق الرئيس** (24)

**الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!**

# ونصت المادة الثانية من الدستور على أن يكون: القذافى نائبا لرئيس الجمهورية وقائداً عاماً

**لاحظ الرئيس السادات أن المشكلة مع القذافى هى أنه لا يعنى ما يقول.. وأنه من السهل الضحك عليه.. فقد ضحكت عليه مراكز القوى.. وكشفه الرئيس السادات أمام أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية.. وفوجئ بانكشاف على صبرى فى بنغازى عندما أعلن أن الرئيس السادات إذا كان قد وافق على الوحدة فإنه شخصياً غير موافق على ذلك.. ووقفت وراء على صرى مراكز القوى فى اللجنة العليا وخذلوه فى اللجنة المركزية .. وجاء مجلس الأمة وعزل 17 عضواً ، وكذلك رئيس مجلس الأمة.. وكان ذلك يوماً مشهوداً لمجلس الأمة .. وأصبحت الصورة واضحة أمام الرئيس.. فأبعد على صبرى من بعده مراكز القوى.. ورد السوفيت على ذلك بانقلاب شيوعى فى السودان.. وفشل الانقلاب الذى عرف به الرئيس السادات قبل أن يقع.. وطرد الرئيس السادات الخبراء السوفيت بعد أن نفذ صبره مع موسكو.. وواجه روح الهزيمة التى تسلطت على مصر وملأت قلوب الناس باليأس من أى أمل فى النجاة.. وكان الرد على ذلك مظاهرات غير متوقعة تدعو للوحدة الاندماجية مع مصر دون سوريا دون السودان.. ورغبة القذافى المجنونة فى أن يكون هو نفسه عبد الحكيم عامر مرة أخرى وتكون السياسة سبباً جديداً فى هزيمة عسكرية بينما مصر وسوريا تستعدان للمعركة!.**

**وفى** بنغازى طلبت من معمر القذافى أن يكون الاجتماع بحضور جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية، وانعقد الاجتماع وكنت أول المتكلمين وكانت هذه الضرورة. وواجهت الجميع قائلاً . فى مطار القاهرة وقبل سفرى مع الرئيس الأسد أخبرنى على

صبرى و شعراوى جمعة أن معمر القذافى غضبان وأنه فى غاية الخرج. لأنه لا يريد الوحدة. وإنما أنا الذى أكرهته على ذلك. وأنا أريد أن أعلن أمامكم جميعاً. أن الوحدة لا تجئ بالإكراه. ولا بالضغط وأن القذافى يستطيع أن يكون على راحته.. على حريتـــه.. وأن يتحلل منها أمامكم الآن.. وجميع الأطراف موجودة.. القذافى وأنـــتم موجـــودون. وكذلك الذين نقلوا لى أن القذافى فى غاية الحرج.. وأن الأمر بعد ذلك وقبل ذلـــك فـــى غاية الخطورة.. فنحن لا تلعب أنها مصائر شعوب.. ومن السهل جـــداً أن أعـــود مـــع الرئيس الأسد إلى القاهرة ولكل ما بدأناه من وحدة مصر وسوريا.. وهذه هى الواحـــدة الأخطر والأهم..

وارتبك القذافى. وقال كلاماً لا أول له ولا آخر.. وأوضح ما اهتديت إليه قبـــل ذلك من أن على صبرى و شعراوى جمعة وآخرين قد ضحكوا عليه..

ولكى أوفر عليه كلامه والارتباك الذى وقع فيه. قلت لهم وقلت له على مســـمع من الجميع: من يريد أن يعمل معنا فليسافر الآن إلى القاهرة.. وهناك سوف أجلس مـــع الرئيس حافظ الأسد تتمم الوحدة..

واعتدل القذافى فى الكلام.. وهدأت نبرة النقاش. وبدأنا ندخل فـــى التفاصـــيل. ولكنه فى نفس الوقت بدأ يضع العراقيل. وهذا العراقيل تقوم على الحساسية مع حـــزب البعث. من أيام جمال عبد الناصر.. ولكن الرئيس حافظ الأسد هو الـــذى اســـتطاع أن يزيل هذه العراقيل وأن يرفع هذه الحساسية.

وبعد يومين من المحادثات قررنا إقفال هذا الموضوع والسفر إلـــى القـــاهرة.. وكان إقفال هذا الموضوع من جانبنا نحن. أما من جانب القذافى ومستشاريه فالموضوع لم ينته بعد .. أو لعله قد بدأ بصورة أخرى .. أو بصور أخرى!.

وأنطلق الصحفيون إلى المطار وكذلك المصرون. وانتقلت أمتعتنا إلى الطـــائرة أيضاً.

ولكن حدثت مفاجأة.. فقد اهتدى الرئيس حافظ الأسد إلى (صيغة) ترفع الحرج وتزيل الحساسيات وترضى جميع الأطراف. وهو صاحب الفضل فى ذلك. ما فى الدور الثانى فى قصر الضيافة حول إحدى الترابيزات. والتقطت لنا الصور . وأصبح معروفاً أننا موافقون.

ومفاجأة أخرى وقعت: لقد أعلن على صبرى أنه غير موافق على الوحدة.

فقلت: ولكن أنا موافق. وإذا كان لك كلام آخر فعليك أن تقوله فى مصر أمام اللجنة العليا!..

وكانت مفاجأة جديدة لى. فأنا لم أكن منتبها إلى كل هذا الذى يجرى حولى ومن ورائى. فأنا بطبعى أختار حسن النية، وأمتى على قاعدة أن الإنسان برئ إلى أن يثبت عكس ذلك. وليس كان إنسان متهماً إلى أن يثبت العكس.. فأنا بطبعى أحسن الظن بالناس.. وبعد ذلك إذا وقع العكس تغير تفكيرى وكذلك رد الفعل. فلا أستطيع أن أتشكك فى كل الناس وفى كل تصرفاتهم، فأعذب الآخرين وأتعذب أنا أيضاً.. ولكن الذى يريحنى عادة فى علاقاتى بالناس هو أن اطمئن إليهم.. إلى أن يقع منهم ما يضطرنى إلى اتخاذ أسلوب آخر ..

ولذلك كان موقفى من مراكز القوى على هذه القاعدة: حسن الظن وسلامة النية إلى أن أكدت الأيام عكس كل ما تصورته. فكان من الطبيعى أن يتغير سلوكى. وقد تغير وانقلب عليهم. لأن الموقف كان أخطر من موقف أشخاص من شخص واحد هو أنا.. وإنما كان تأمر أشخاص على بلد من أوله لآخره. وما دمت مسئولاً عن هذا البلد، فلا يمكن السكوت على ذلك .. وإلا كان السكوت خيانة.. كما أن تأمرهم كان خيانة أيضاً!..

وفى مصر استأنف على صبرى وبطانته اللعب على المكشوف فى اللجنة العليا. ومن اللجنة العليا كانت بداية الصراع المفتوح. كنا فى اللجنة العليا ثمانية.. خمسة منهم صوتوا ضد اتفاقا الوحدة.

وهذا قرار واضح تماماً. وخطة علنية. وصراع حقيقى. وأظن أنه فى مثل هـذه الحالة. لا يمكن لأحد عاقل أن يعود إلى أحسن النية كأسلوب فى التفكير فالمسألة بلغت أقصى درجات التحدى.

وكما ذكرت قبل ذلك: فإننى فى مثل هذه المواقف أجد نفسى فى غايـة اليقظـة فأرى كل شئ بمنتهى الوضوح.. وأذهب إلى أبعد مما تراه عيناى وعيون الآخـرين.. وأتلمس الخطوات التالية فى غاية الهدوء..

وفى اللجنة المركزية تم الاتفاق بالإجماع.. واضطر شعراوى جمعـة أن يغيـر التكتيك بسرعة.. ووافق. وأصبح هذا واضحاً بعد ذلك فى المحادثات التليفونية المسجلة بين مراكز القوى – هذه المكالمات كما هو معروف قد سجلوها لأنفسـهم. وفـى هـذه المكالمات كما هو معروف قد سجلوها لأنفسهم. وفى هذه المكالمات نجد أن بينهم اتفاقاً للهجوم العنيف على شخصى وفى مناقشتى. لعل هذا الهجوم يفقدنى أعصابى. فإذا فقدت أعصابى كسبواً الموقف مؤقتاً.. تمهيداً لإحراجى فى النهاية.. ولكن شيئاً من ذلـك لـم يحدث. فلا أفقدونى أعصابى ولا أحرجونى فى النهاية..

وفى يوم 3 مايو أخرجت على صبرى..

وفوجئت بأن معمر القذافى قد جاء إلى القاهرة وأول ما خطر على بالى هو مـا يسألنى القذافى فى موضوع معين ولكنه لم يفعل. وقد أدهشنى ذلك جداً..

مراكز القوى قد هاجموا القذافى فى اللجنة المركزية بعنف وقالوا: كيف نتحد مع مجموعة (عيال)..

و القذافى (عيل) .. وليس من المعقول أن مصر العظيمة هذه بجـلال قـدرها تضع يدها على أيدى هؤلاء العيال .. ولكن القذافى لم يناقش هذه الاتهامـات.. وإنمـا سألنى عن الذى حدث فى مصر..

وقلت له: لا شيء.. إذا كان على صبرى قد خرج فما يزال شـعراوى جمعـة والآخرون فى أماكنهم.

وسألنى القذافى: يعنى لا شيء أكثر من هذا؟..

قلت: إنها مسألة عادية جداً..

ثم عاد القذافى إلى ليبيا!.

وعندما استرجع الآن هذه الصورة بكل تفاصيلها فإننى أجد التفسير الوحيد لسلوك القذافى هذه أنه جاء ليرى بنفسه إن كنت أنا ما أزال فى موقعى من السلطة.. وإن كنت أستطيع أن أبقى بعد ذلك .. ولا أعرف ما هى المعلومات أو الانطباعات التى ترسبت فى نفسه. ولكنه وجدنى فى مكان موقعى. وأن كل شيء عادى فى مصر.. فعاد إلى ليبيا!.

بينما الرئيس جعفر نميرى جاءنى صباح يوم 14 مايو.. جاء فى الطائرة نائماً. أيقظوه فى مطار القاهرة. جاء يطمئن بنفسه. وجلس معى فى القاهرة يوم تشكيل الوزارة الجديدة. ويوم 14 مايو كان يوم مجلس الأمة الذى قرر عزل 17 من أعضائه الذين هم من مراكز القوى ومن بينهم رئيس المجلس نفسه.. وكان وراء هذه العملية مصطفى كامل مراد..

وكان الطبيعى أن يجتمع مجلس الرياسة المكون منى ومن الرئيس حافظ الأسد من القذافى... ورأيت أن أنسب مكان هو مرسى مطروح أعددنا بيوت الضيافة. فالمسألة جادة جداً. وأنا فى حاجة إلى بعض الراحة بعد كل هذا الإرهاق الذى عانيته فى مصر من تصفية مراكز القوى.

وباعتبارى صاحب الدعوة ذهبت قبل الموعد المتفق عليه. وكذلك الرئيس حافظ الأسد. ولكن القذافى لم يحضر بعد. ولا توجد أية أخبار تدل على أنه سوف يحضر.. أو أن عنده أية نية لذلك.. وسألنا عن القذافى. وقيل لنا فى ذلك الوقت إنهم لا يعرفون له مكاناً. ولكن لابد أن يظهر حالاً. وأعدنا الاتصال نسأل عنه. قالوا: فى الصحراء..

ولم نعرف أين هو فى هذه الصحراء..

ثم قيل مريض.. وقيل إنه اضطر إلى خلع ضرسه فى آخر لحظة. ولكن هذا لن يمنعه من الحضور لأنه – كما قالوا– حريص جداً على ذلك. ولم يحضر رغم كل ذلك!.

ولكن الرئيس حافظ الأسد هو الذى نبهنى إلى شذوذ هذا الموقف من القذافى وسألنى: ألا ترى أن هذا شيء غريب حقاً.. إنه يعلم بموعد الانعقاد.. والموعد معلن على العالم العربى كله.. ومع ذلك لا يجيء.

فقلت له: لعل لديه أسباباً.. لعله مريض.. لعله فى الصحراء..

وكنت حسن النية تماماً.

ولكن وجدت أن شكوك الرئيس الأسد فى محلها.

وقلت للرئيس الأسد: على كل حال كان المفروض أن يجئ اليوم. فإذا لم يحضر فلنجلس معاً ونعمل.

وفى ذلك اليوم أعلنت أننا اتصلنا بالعقيد القذافى وأنه لم يتمكن من الحضور لأنه خلع ضرسه!.

ولم يكد يسمع القذافى هذا النبأ حتى جاء بسرعة وأعلن أنه لم يكن مريضاً ولا خلع ضرسه.

وسألته: ما هى الحكاية يا معمر؟..

وسمعت منه كلاماً فارغاً وأعذاراً لا أول لها ولا آخر. واجتمعنا. واتفقنا على أن تسافر إلى دمشق لإنهاء تفاصيل الوحدة.

ووقع فى هذه الأثناء الانقلاب الشيوعى فى السودان واتخذنا موقفاً واضحاً. ومعمر القذافى أيضاً أنزل الطائرة التى كانت تحمل أثنين من زعماء الانقلاب هما بابكر النور وفاروق حمد الله وأرسلهما إلى الرئيس نميرى.

وعندما وقع الانقلاب اتصل بى معمر القذافى قائلاً:

لابد أن ترسل القوات إلى السودان.

وسألته: أية قوات؟.

قوات مظلات.

– قوات المظلات توصف فى لغة العسكريين بأنها بلا درع.. فكيف تقف أمـــام الدبابات..

وظل القذافى يتصل بى ليلاً ونهاراً يلح فى أن أرســل قــوات مظــلات إلــى السودان.. وهو لا يعرف ما الذى يمكن أن تلقاه مثل هذه القوات فى ظروف السودان!.

فلا هو فأهم ما يقول، ولا كان فى الإمكان إقناعه بشيء آخر.

وإن كانت حرب أكتوبر قد غيرت الكثير من المفاهيم العسكرية التقليدية. فمــن أهم ما حققته حرب أكتوبر أنه لأول مرة فى تاريخ البحرية ينطق صاروخ بحرى مــن زورق صغير فيغرق مدمرة كبيرة .. وهذا ما حدث عندما أطلقنا صاروخاً مــن زورق صغير فيغرق مدمرة كبيرة.. وهذا ما حدث عندما أطلقنا صاروخاً من زورق له طــاقم من 17 مقاتلاً على المدمرة الإسرائيلية إيلات وطاقهما من 300 وكاملة التسليح..

وشئ آخر حققته القوات المصرية فى حرب أكتوبر هو أن القوات التى عبــرت والتى نزلت على أرضنا فى الضفة الشرقية للقناة كانت من المشــاة أى القــوات غيــر المدرعة والتى كانت تحمل صواريخ للدبابات .. فلما تقدمت الدبابات الإسرائيلية كانت هذه مذبحتها التاريخية!.

وظل القذافى طول الليل يتصل بى: أنزل القوات الخاصة.. أنزل الصاعقة..

وطلبت إليه أن تنظر حتى استدعى خالد عباس وزير الدفاع الســودانى، وكــان وقتها بوغوسلافياً..

وكما ذكرت قبل ذلك أننى قد علمت بهذا الانقلاب قبل وقوعه. واستدعيت زين العابدين عبد القادر أحمد أعضاء مجلس الثورة السودانية، وكان فى مصر. وطلبت إليه

أن يخبر الرئيس نميرى بأن انقلاباً سوف يقع. وعليه أن يحتاط لذلك.. وسافر زين العابدين ووقع الانقلاب وامسكوه فى المطار قبل أن يخبر الرئيس نميرى بذلك.

وحضر خالد حسن عباس من يوغوسلافيا..

واستدعيت اللواء السودانى الموجود عندنا على الجبهة. وأعددت كل شئ. وطلبت من خالد عباس أن يعلن قيام حكومة سودانية باسم الرئيس نميرى فى وادى حلفاء على حدود مصر. كل ذلك قد تم إعداده فى ساعات.

واستدعيت السفير السوفيتى وطلبت إليه أن يخبر حكومته: بأننى لن أقبل قيام حكومة شيوعية على حدود مصر. وأننى أذهب فى مقاومة هذا النظام، إذا قام، بكل ما أستطيع من قوة وإلى أبعد حد!.

ولم يهدأ مونتجمرى – أقصد القذافى العارف بكل بواطن الحروب والعسكرية – إلا عندما قلت له : إننى أعددت كل شيء. وإن القوات السودانية قد أخذت مواقعها فى شمال السودان. وإننى سوف أساعدها بكل ما تحتاج وكل ما أستطيع حتى يستعيد الرئيس نميرى كل سلطاته..

واستعاد الرئيس نميرى الوضع فى السودان بالكامل وفشل الانقلاب الشيوعى الذى جاء رداً على تصفية مراكز القوى فى مصر. والذى كان يهدف إلى ضرب الرئيس نميرى وإخراج النظام القائم فى مصر وتوريطه أيضاً فى السودان..

وكان لابد أن نلتقى فى دمشق.. فقد اجتمعنا فى بنغازى وفى القاهرة. ولكى نكمل تسوية كل الخلافات الصغيرة لابد أن نجلس معاً لنضع دستور الوحدة ومجلس الأمة الاتحادى ومجلس الرياسة الاتحادية ومحكمة الخلافات – وهذا كله موجود بتفاصيله فى ميثاق الوحدة.

وتقع مفاجأة. ومع القذافى لابد من مفاجأة.

أما المفاجأة فهى أن هذا الرجل لم "يدخل" الوحدة وإنمـا "أدخلنـاه الوحـدة" أى دخلها رغم أنفه. ولو نشرنا اليوم محاضر جلسة دمشق لتأكد العالم كله اليـوم أن هـذا رجل مجنون.

وفى هذا الاجتماع بدمشق تجلى جنون القذافى فى أشد حالاته. وإذا بـه يهـاجم سوريا وحزب البعث والأسد والوفد المرافق له. وكان الوضع.. فـى غايـة الصـعوبة فالأدب يمنع الرئيس الأسد أن يهاجم ضيفه القذافى. وكان القذافى لا يعـرف الحيـاء. وظلت عيناه زائغتين ولهما بريق عجيب.. هذا البريق الذى عرفت فيها بعد أنه النـذير الذى يسبق انتقال القذافى فى شخصية إلى شخصية أخرى.. كما ذكرت قبل ذلك..

وطلبت الكلمة.. وهاجمت القذافى بعنف. لأنه تجاوز حدود الأدب واللياقة.. وأنه راح ينال من قدر الرئيس حافظ الأسد وهو رجل جاد وعلى خلق.

ولم يرد الرئيس الأسد بكلمة واحدة على القذافى واكتفى بالنقـد العنيـف الـذى وجهته له..

واتجهت إلى الرئيس الأسد قائلاً: هاتوا لى ورقة بيضاء.. لابد أن أنهـى هـذا الوضع وأن نتفق على كافة الإجراءات. هاتوا لى ورقة بيضاء وأنا أكتب فيها كل مـا اتفقنا عليه وأوقعها فوراً. لأن الاستفتاء على الوحدة هو يوم أول سبتمبر. ولابـد مـن ذلك. فنحن لسنا أطفالاً نلهو بأقدار الشعوب!.

وتم الاتفاق. وأعلن ذلك . وسافرت من دمشق وأجرى الاستفتاء بعد ذلـك فـى موعده. وأعلن مجلس الرياسة وانتخبونى رئيساً لمدة سنتين.

وكان لابد أن نجتمع كل ثلاثة شهور لتصريف شئون دولـة الاتحـاد ولزيـادة التقارب والتفاهم. وأكملنا الشكل النهائى لمجلس الأمة الاتحادى. واتخذنا مقراً للحكومة الاتحادية فى مصر الجديدة.

ولاحظ الرئيس حافظ الأسد أن القذافى يتباطأ فى دفع ما يجب أن يدفعه من أموال تتعلق بالمؤسسات الاتحادية. وأن القذافى يتلمس الأعذار. ويقول: إن ظروف بلاده المالية لا تسمح!.

ونحن نعرف ظروفه وظروفنا أيضا. ولكنه لا يريد أن يساهم بشيء. ولا يجد حرجاً فى أن يجد أعذاراً واهية .. ولا يستحى فى نفس الوقت..

واعترف أننى كنت حسن النية.. ولم تكن ليبيا وما جرى فيها فى شاغلى الأول. فعندى مصر. ومشاكلها الداخلية والخارجية أضعاف مشاكل ليبياً. ومصر هى همى الأكبر. فنحن فى أسوأ حالة اقتصادية وأوضاعنا العسكرية ليس أسوأ منها شئ. وأعمق من الوضع العسكرى تلك الحالة النفسية الأليمة التى تردى إليها الشعب المصرى. والعربى أيضاً.. فالهزيمة العسكرية لم تعد عسكرية. إنما أصبحت هزيمة مصرية.. هزيمة نفسية.. وأصبح الهوان والذل واليأس هو الهواء والماء والطعام الذى تعيش عليه مصر. كان ذلك ليلاً لا تطلع له شمس.. ويبدو أنها لن تطلع. بل إن عدداً من المثقفين المصريين كانوا يؤكدون أن مصر قد دخلت الليل الطويل أو الليل الأبدى.. وأنه لا أمل فى أى شئ. وكان ذلك أفدح شئ منيت به مصر على أيدى أبنائها.. ذلك هو همى الأكبر. وتلك هى مهمتى الكبرى.

كيف الخروج من الهوان إلى الكرامة. ومن الهزيمة إلى النصر، إلى انتصارات 73.. كان ذلك هو شاغلى أنا والرئيس الأسد. ولذلك وجدنا فى عبث القذافى شيئاً تافهاً.. وربما وجدنا فيه أيضاً دخاناً نطلقه نخفى وراءه هدفنا الأكبر وهو الاستعداد للمعركة. لأنه لابد من معركة. وبغير هذه المعركة الظافرة، فلا معنى ولوجودنا فى موقع المسئولية.. لابد أن تكون هذه المعركة –بمشيئة الله– ظافرة.. وإلا حقت علينا نظرية اليهود من أن مصر –والعرب جميعاً– قد خلقت لتنهزم إلى الأبد.. وفى نفس الوقت إن إسرائيل قد قامت لتنتصر إلى الأبد!..

ولذلك هانت ألاعيب القذافى...

ولكن لم يهن هذا الدور الذى يلعبه القذافى أو الذين يلعبون القذافى، فالأمر قد أصبح واضحاً تماماً .. فالقذافى مع الوحدة وضدها. إذن هو مع الوحدة بشروط خاصة.. سوف نعرفها حالاً.

ثم إن الوحدة شعار ارتفع للشوشرة على مصر..

ثم إن الانقلاب الشيوعى فى السودان كان ضرباً لمصر فى الجنوب، بعد ضرب مصر لمراكز القوى.

إن الموقف ظاهره العبث الصبيانى.. ولكن باطنه لعب من نار..

وكان من عادتنا فى اجتماع مجلس الرياسة أو نكون نحن الثلاثة.. ولكن فى إحدى المرات طلب القذافى أن يكون الاجتماع بحضور وفود من الدول الثلاث. وأرسلت إلى الرئيس الأسد أخبره بذلك ليحضر معه وفداً.

وسارت الأحداث فى مصر حتى بلغت مرحلة طرد الخبراء السوفيت فى يوليو1972. وكان هذا القرار هو قمة اليأس من السوفيت. وقد ذكرت التفاصيل قبل ذلك. وقعد طرد السوفيت شعرت بشيء من الارتياح. فقد استنفذت معهم كل رصيد من الصبر. وهو كثير.

وكان لهذا القرار صدى عالمى رهيب. وكانت له فرحة عميقة عند جماهيرنا المصرية والعربية- رغم هذه الإقليمية المتباكية على مصر وما سوف يصيب مصر، والذين أقاموا لأنفسهم بيوتاً متهدمة وراحوا ينعقون عليها كالبوم.. ولو كان هذا البوم ينعق فى سره، لهان الأمر.. ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما راحوا يؤكدون للشعب كله أن الطيور كلها هى أنواع وألوان من البوم، وأن مصر كلها قد انهدمت.. وأنه ليس أمام الشعب إلا البكاء على الماضى. ولا العويل على المستقبل وكان شيئاً لا يمكن احتماله ولا السكوت عليه.. وظن بعض الناس فى مصر وفى بيروت أن العالم قد أنتهى. وأنهم جميعاً شاهدون على نهاية العصر وأنهم قد أبلغونا ذلك..

وأنهم يشهدون الله والعالم على أنفسنا فلا يبقى إلا أن نموت بأيدينا، قبل أن يقتلنا غيرنا..

أما هؤلاء.. ما الذى ينتظرونه؟..

فقد اختلفوا فى ذلك.. قالوا: ثورة مصرية..

وقالوا: نهضة قذافية.

وقالوا: غزو سوفيتى.

وأخيراً: انقلاب شيوعى فى السودان يستنزف مصر ويثنيها عن الاستعداد لأية معركة مصيرية.. وبالاختصار: لا أمل!.

وكان ذلك شيئاً فظيعاً..

وهو بالفعل شيء فظيع: أن تصبح كل الألوان سوداء. أن يكون لمصر ماضى وليس لها مستقبل. أن يتحول الصغار إلى كبار. وأن يصبح التافهون فلاسفة وأن يكون مصير مصر العظيمة فى أيدى هؤلاء المرضى..

وفى إحدى المرات سألت معمر القذافى: أنت أرسلت أناساً إلى مصر يسألون عن شعبيتى.. وهل أنا جالس فى موقعى؟ .. وهل القاعدة الشعبية العريضة سليمة؟.. وما معنى هذا؟..

وطبعاً أنكر القذافى. وتلعثم..

وعدت أقول له: سوف أريحك. لا خوف على فى بلدى. إننا شعب عريق. وجماهيرنا أصيلة. والقاعدة سليمة. والذى يقال لك لا تصدقه. ومستشاروك بك أن تغيرهم. فمصر بخير. وسوف تعد كل شئ للمعركة. هذه حقيقة مؤكدة. فأرح نفسك، أو قل للذين حولك أن يريحوك!.

ومازالت حتى ذلك الوقت حسن النية فى النظر إلى القذافى. وأقول لنفسى: شباب.. حماس.. تنقصه التجربة.. أو سوء تقدير للشعب المصرى واستخفاف بالشعب

الليبى.. أو سوء فهم للفلوس، فهو يظن أن الفلوس تستطيع أن تصنع شعبيته.. أو لأنه قصير يحب أن يقف على فلوسه ليبدو أطول..

وهى جميعاً أعذار أقولها لنفسى وأنا أفكر فى أمر هذا الإنسان الغريب. وهى تؤكد أننى مازال حسن النية فى نظرتى إليه..

وفى ذلك الوقت كان القذافى ماضياً فى لعبة التهديد الاستقالة. وكان مستقيلاً. وكان من عادته إذا استقال أن يذهب إلى الصحراء. وفى الصحراء كان يقيم خيمة. وإلى جوار الخيمة كان يضع سيارة وفى السيارة لاسلكى. ومن هذا اللاسلكى يصدر أوامره إلى كل إنسان. رغم أنه مستقيل وكان يشيع أنه رغم استقالته، فإن قلبه لا يطاوعه أن يترك ليبيا فى مهب التاريخ.. أو أن يترك مصر أو العالم كله.. إلى هذه الدرجة كان يرى القذافى أنه ضرورة لا غنى عنها لأحد فى هذا العالم كله!.

ورغم أنه لا يبعد كثيراً عن ليبيا، فإنه ينتظر أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية أن يذهبوا إليه يرجونه أن يعود. بل إنه يحاسبهم إذا لم يفعلوا ذلك.. وخيرهم من كان أسرع من الآخرين فى استعطاف القذافى أن يعود إلى القيادة الليبية أو الزعامة العربية أو الرياسة الكونية.. وفى كل مرة يهرب القذافى إلى الصحراء يخرج فيها بتعبيرات أو بشعارات .. هذه الشعارات قد أعدها له مستشاره المصرى أو مستشاروه وكان يقول إن ليبيا هى بلد الثورة والثروة..

وغير ذلك من الآيات –استغفر الله–التى جاءت فى كتابه المقدس الذى أسماه (الكتاب الأخضر).

وكنت قد اتفقت مع معمر القذافى أن أسافر إلى ليبيا لكى استريح بعض الوقت. وكنت قد اخترت منطقة طبرق بالذات. فهى هادئة وفى قلب الصحراء. وأنا أحب الصحراء: جفافها وصفاءها وهدوءها. ثم إننى قد عملت فترة طويلة فى الصحراء الغربية. وفى طبرق توجد استراحة بسيطة كان قد بناها الملك السنوسى.

ونزلت فى مطار طبرق. ولم أجهده وإنما وجدت عبد السلام جلود. وهذا غير مألوف. فالطبيعى أن يكون هو فى استقبالى. وقيل لى إنه سوف يجئ أو لم يتمكن أو مريض.. أو أى عذر غير مقبول. وكانت لنا فى طبرق مدرسة جوية. وذهبت إلى المدرسة الجوية وتحدثت إلى الضباط والجنود. واتجهت إلى الاستراحة على مدى 23 كيلومتراً من مطار طبرق.

وفجأة جاءت لوريات تحمل ميكروفونات وأعلاماً ولافتات تطالب: بالاندماجية.. الاندماجية.. وإذا بالقذافى أيضاً قد جاء على رأس لوريات ومظاهرات تطلب الوحدة الاندماجية بين ليبيا ومصر..

ولابد أن يندهش الإنسان عندما يسترجع كل الذى حدث. فأنا قد أخبرته أننى جئت أنشد الراحة.. ثم إننى أعرف، وهو أيضاً، وكل الزعماء العرب، أنه لم يكن جاداً لا فى الوحدة ولا فى الإتحاد، ثم إنه كان متحمساً للوحدة ثم رافضاً لها.. واليوم يقود مظاهرة إذاعية تليفزيونية صحفية صحراوية تطالب بالاندماجية ليغطى على قرار طرد الخبراء السوفيت.. أو ليرد عليه .. أو ليشوشر عليه.. أو ليشغل الناس عن أثره ووقعه.. شيء محير.. ثم إن هذا كله من جانب واحد.. جانب القذافى.. دون اتفاق سابق معى أو معى أنا والرئيس حافظ الأسد.. ثم كيف يتحقق كل ذلك وفجأة وبسرعة.. ولكن هذه التساؤلات ليست مما يدخل فى منطق القذافى، إن كان له منط معقول:

وبعث العقيد القذافى واحداً يقول لى: كلامك معقول جداً.. ولكن نرجوك أن تبحث لنا عن مخرج نغطى به موقف القذافى أمام العالم..

مطلوب منى تغطية القذافى.. ولكن ما الذى يدفع القذافى إلى تعربه نفسه هكذا؟.. وما هى الضرورة الملحة؟.. ما الذى خطبة فى رأسه فى الأيام الأخيرة؟..

ما هى العلاقة بين قرار طرد الخبراء السوفيت وقرار الاندماجية الليبية المصرية من ناحية والواحدة الليبية المصرية السورية من ناحية أخرى؟..

فطلبت أن يجئ د. عزيز صدقى ود. حافظ غانم لعلنا نجد غطاء لموقف القذافى..

وفجأة وجدنا شيئاً جديداً. لقد وزع القذافى مشروع الوحدة الاندماجية على الجماهير.. ومشروع دستور الدولة الاندماجية.. وهو صورة من مشروع الدستور المؤقت لسنة 1971.. كل ذلك قد تم منذ أيام.. وقامت الدعوة له فلا يبق إلا أن أوافق عليه؟!..

وأرى فى المادة الثانية من الدستور هذا النص العجيب: وأن يكون معمر القذافى نائبناً لرئيس الجمهورية وقائداً عاماً للقوات المسلحة؟!.

والموقف يبعث على الضحك. ولكن القذافى قد أعلن ذلك.. أو أعدوه له. ثم يريد تغطية منى له.. أى مطلوب متى أن أعطيه العذر الشرعى حتى لا يبدو مجنوناً أمام العالم العربى كله..

وقلت للقذافى فى رفق، بعد أن رفضت كل ما قاله من أوله لآخره لأنه شيء جنونى: المسافة بين مصر وليبيا كبيرة جداً .. إن الفرق بين ثورتنا وثورتكم عشرون عاماً من المعاناة ومن التجربة.. وكان من الممكن أن نقبل شيئاً من ذلك من عشرين عاماً.. أما اليوم فمرفوض تماماً.. ثم إن الجمع بين السياسة والعسكرية رفضناه.. والنكسة التى أصابتنا كان سببها اندماجية العسكرية والسياسة معاً. فأنا لن أكرر مأساة عبد الحكيم عامر لا معك ولا مع غيرك..

وكان معمر القذافى يسمع هذا الكلام ولا يرد..

ثم قلت له: أسمع يا معمر.. أنا عندى أى .. أبعث لنا أثنين من أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى مصر.. ليريا تجربتنا ويتعلماً .. وفى هذه الحالة نحن تحت أمركم ولن نبخل عليكم بأى شيء!.